الفصل الثالث

الثعلب خارج القفص- أسامة بن لادن وتعقب أثر المسلمين

من يبحث يجد

صرحت وكالة المخابرات الأمريكية(CIA) بعد ظهر يوم الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ اعتماداً على مصادر موثوقة، أنها قد حصلت بعد الاعتداءات على معلومات جديدة تؤكد تورط أسامة بن لادن السعودى الجنسية فى هذه الضربات، والذى اعتبر أيضًا مسئولاً عن تدبير الضربات التى وجهت ضد سفارتى أمريكا فى كينيا وتنزانيا عام ١٩٩٨، وكذلك تلك التى وجهت ضد المدمرة «إم إس كول- MSS Cole» عام ٢٠٠٠ م(٧٧).

فى اليوم التالى أثارت التقارير الصحفية نفس الشىء، إلا أنها لم تشر لـ «بن لادن» فقط، بل أشارت أيضًا لتنظيمه الذى يطلق عليه «القاعدة» على أنه شبكة إرهابية دولية مسلمة، وعادت التقارير إلى الوراء لتذكرنا بأن أسامة بن لادن كان أيضًا متهمًا فى أول اعتداء على مركز التجارة العالمى عام ١٩٩٣م.

حكومة بوش ضد ٦٠ دولة تقريبًا فى الحرب العالمية الثالثة

نشرت وزارة العدل فى ثالث يوم بعد الاعتداء قائمة تضم الأسماء والسير الذاتية لـ ١٩ شخصًا قالت إنهم قاموا باختطاف الطائرات، وجميعهم من أصل عربى، وكان رئيس الولايات المتحدة قد قام ومعه أربعة رؤساء سابقون بالصلاة فى الكاتدرائية الوطنية بواشنطن، وفى اليوم التالى أكد بوش مجدداً على ضرورة شن حرب قاسية وطويلة الأمد لشل حركة الإرهاب، وهددت وزارة الخارجية جميع

الدول والحكومات التى تأوى وتدعم الإرهاب بعزلة دولية، وصرح الرئيس بوش بعد الهجمات بيومين أنها ستكون أول حرب فى القرن الجديد، وأنه سيقود فيها الولايات المتحدة الأمريكية إلى النصر .

كان «تشينى ـ Cheney» نائب الرئيس و«رامسفيلد ـ Rumsfeld» وزير الدفاع قد تحدثا كثيراً عن ٦٠ دولة على الأقل تقدم الحماية لخلايا إرهابية، وأنها ستدخل مع هذه الدول فى صراع طويل، أما وزير الخارجية «كولين باول ـ Colin Powell» فقد اعتبر أسامة بن لادن المتهم الرئيسى، ولم يكن الأخير حذراً فى تصرفاته، فقد قام بالاتصال بتليفونه المحمول من داخل أفغانستان قبل العملية بيوم واحد، وكما هو متوقع فقد تم التقاط هذه المكالمة التى كان يعتقد أنها لأمه، ولكنه اتضح بعد ذلك أنها لإحدى زوجات أبيه(٧٩)، وبذلك تم التأكد من وجود هذا القائد الإرهابى فى أفغانستان، وفى نفس الوقت صرح نائب وزير الدفاع بأنه قد بات حتمًا القيام بحملة عسكرية طويلة .

فى أفغانستان هددت حركة طالبان الولايات المتحدة الأمريكية بالانتقام إذا ما شنت الحرب على البلاد، ومن ناحيتها قبلت الحكومة الباكستانية بعد الهجمات بأربعة أيام طلب الولايات المتحدة بتقديم الدعم لها فى الحرب على أفغانستان المجاورة، ونقل المفاوضون الباكستانيون إلى كابول طلب الولايات المتحدة بأن تقوم أفغانستان بتسليم بن لادن وإلا ستواجه الحرب، ومن جانبها أحالت قيادة طالبان الأمر إلى مجلس الحكماء الدينى الذى اجتمع لمناقشة طلب الولايات المتحدة، وطالب المجلس فى نهاية انعقاده أسامة بن لادن بترك البلاد طواعية .

نفى أسامة بن لادن مسئوليته عن الضربات، إلا أن الرئيس بوش رفض ذلك بشدة(٨٠)، وصرحت جميع دول العالم تقريبًا بتضامنها فى الحرب ضد الإرهاب، وفى ١٩ سبتمبر تم إنزال طائرات أمريكية إضافية فى مواقع لها على الخليج الفارسى، كما ارتفع عدد السفن الحربية فى المنطقة، وفى ٢١ سبتمبر أعلنت السلطات الألمانية أن المختطفين الـ ١٩ الذين أعلنت عنهم وزارة العدل الأمريكية، كانوا مقيمين فى ألمانيا لفترة طويلة، وكانت المخابرات المركزية الأمريكية (CIA)

قد قامت لعدة شهور بمراقبة محمد عطا ومسلمين آخرين فى ألمانيا دون علم السلطات الألمانية[٨١]، وعلى الرغم من ذلك لم تر السفارة الأمريكية فى ألمانيا أى سبب واضح يمنعها من منح عطا تأشيرة للسفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ٢٠٠٠م.

ووعد وزير خارجية الولايات المتحدة بنشر أدلة إدانة أسامة بن لادن والـ ١٩ المزعومين الآخرين، ولكنه تراجع بعد ذلك عن وعده مشيرًا إلى أن مصالح الدولة تستلزم إخفاءها، وقد تم التصريح بأن محكمة الجنايات الأمريكية لا تعتبر هذه الأدلة المتاحة أدلة كافية .

من جانبها صرحت حركة طالبان بأنها اتصلت بـ«بن لادن» وأبلغته بتوصيات المجلس الدينى، وقد طالب السيد «تونى بلير ـ **Tony Blair**» بعد الهجمات مباشرة **بسرعة محاربة الإرهاب الدولى**، ثم قام بالسفر إلى واشنطن للاطّلاع على الأدلة التى تدين أسامة بن لادن والـ ١٩ المختطفين، وأوضح فى مؤتمر صحفى أن الأدلة والأسباب التى فى حوزة الحكومة الأمريكية لا يتطرق إليها الشك، وقام أيضًا المستشار الألمانى «شرويدر ـ **Schroder**» بالاطّلاع على المستندات لمدة نصف ساعة فقط دون أن يبدى أية ملاحظات، لكنه أعرب عن تضامن ألمانيا الكامل مع الولايات المتحدة فى حربها ضد الإرهاب، وأما حلف الناتو فقد أكد تحالفه مع الولايات المتحدة بناء على طلب منها .

من ناحيته صرح رئيس الوزراء الإسرائيلى أن الفلسطينيين عمومًا ورئيسهم عرفات خصوصًا، يعتبرون شركاء لأسامة بن لادن، وأنهم العدو الإرهابى الأول فى الشرق الأوسط، ولكنه لم يقدم أية أدلة على ذلك، وهكذا ستبقى سياسة شارون دائمًا سياسة أكاذيب، فهى التى سمحت للمستوطنين المتشددين خلال الثلاثة شهور التى سبقت الحادى عشر من سبتمبر بوضع أساس عشر مستوطنات جديدة فى المناطق الفلسطينية التى احتلتها إسرائيل، وقام المستوطنون بأعمال وحشية ضد من يعيش هناك من الفلسطينيين، وبدلاً من أن يتم قمع هذه الأعمال تم تنصيب الجيش لحماية الاغتصاب الوحشى للأراضى، لذلك رفض عدد قليل من الضباط والجنود الإسرائيليين حمل السلاح وخاصة من هم على قوة الاحتياط، وتم نقلهم إلى مصلحة السجون.

غشاوة على أعين التحريات

بعد الضربات بعدة أيام، تكاثرت الأخبار حول اختفاء مخططى الهجوم فى جبال وكهوف أفغانستان، وارتباطهم بالمدبر الغامض أسامة بن لادن، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى وردت بعض التقارير التى تثير شكوكًا بالغة حول نظرية التآمر المعلنة رسميًا والتى تتبناها الحكومة الأمريكية، غير أن الصحف الأمريكية وكذلك الأوروبية لم تجد الوضع يسمح للحديث عن كلا الافتراضين، ولكنها أخبرت فقط، وبقوة، عن المعلومات التى تشير بأصابع الاتهام للمجرمين العرب، وقلما تحدثت عن أية شكوك فى ذلك، وصرح وزير الخارجية أن الإدارة - على عكس التصريحات السابقة - ليس بحوزتها أية أدلة تقوم بنشرها أو تقديمها لأى محكمة كى تستصدر على أساسها حكمًا .

اعتراف أم تكذيب ؟

أسامة بن لادن على شريط فيديو

على الرغم من ذلك فقد رأت الحكومة الأمريكية أن التهمة ثابتة بالأدلة على المختطفين الـ ١٩، استنادًا إلى الآثار العديدة التى خلفها المختطفون وراءهم وهم فى طريقهم لتنفيذ الاعتداء فى الولايات المتحدة وفى دول أخرى كثيرة، وسرعان ما توقعت المخابرات الأمريكية وخبراء الإرهاب أن أسامة بن لادن هو المدبر لهذه العمليات من داخل أفغانستان، ولم يكن لديهم أدلة مقنعة على ذلك، ومنذ بداية التسعينيات وأسامة بن لادن هو المتهم دائمًا فى أكبر الاعتداءات على الأهداف الأمريكية: فمثلاً - كما ذكرنا - الاعتداء على السفارات الأمريكية فى أفريقيا، وكذلك على السفينة الحربية الأمريكية «إم إس إس كول ـ MSS Cole» فى المياه اليمنية، وكذلك تفجير مبنى الحرس الوطنى السعودى فى الرياض بقنابل ضخمة تم شحنها فى عربة بضائع، ولقى خلال هذا الهجوم ستة أشخاص مصرعهم وجُرح ستون آخرون، من بينهم عدد كبير من الأمريكيين .

على العكس تمامًا من التصريحات الأخيرة لوسائل الإعلام، استنكر أسامة بن لادن فى حديث له مع إحدى الجرائد الباكستانية [٨٢] الهجوم، ونفى مشاركته فيه، وقال إنه لم يكن لديه علم مسبق بالضربات، وأنه يستنكر قتل الأبرياء من النساء والأطفال وغيرهم، والإسلام يحرم هذا السلوك تحريمًا قاطعًا حتى فى حالة

الحرب، واستطرد أسامة بن لادن قائلا بأن الولايات المتحدة هى نفسها التى تتعامل مع معتنقى الإسلام فى كثير من الدول تعاملاً لا إنسانيًا . هذا وقد أشار بن لادن إلى السلوك المعادى الذى تلقاه الشعوب البريئة فى العراق والشيشان والبوسنة، فأمريكا - على حد قوله - لا تريد بجوارها دولاً تساويها أو تماثلها، بل دولاً تخدمها وتعبدها، وقال إن المسئول عن هجمات الحادى عشر من سبتمبر لا يعتبر صديقًا للشعب الأمريكى، وإن كان هو شخصيًا ضد النظام الأمريكى، فهو فى نفس الوقت لا يعادى الشعب بأى حال من الأحوال(٨٣) .

كانت الضربات قد أودت بحياة الأمريكيين العاديين، وطالب بن لادن الولايات المتحدة بالبحث عن الجناة بين صفوفها، فهم جزء من النظام الأمريكى الذى يحض على إيجاد نزاع بين المسيحية والإسلام فى القرن الجديد، مستهدفًا بذلك تحقيق نصر لكل ما يخص أمريكا من حضارة وأرض وقومية وعقائد .

هذا هو نفى المسئولية عن تفجيرات الحادى عشر من سبتمبر، وقد نشرته عدة صحف ألمانية إقليمية، بينما قامت صحف دولية أخرى بالاتفاق مع وسائل الإعلام الأوروبية والأمريكية بنشر رواية أخرى تفيد بأن بن لادن فخور بالهجمات التى وقعت فى نيويورك وواشنطن، وأنه راض بها، ويهدد بأعمال إرهابية أخرى فى العالم على وجه العموم، وضد الأمريكيين وحلفائهم على وجه الخصوص، وإذا ما بحثنا عن مصدر هذه الرواية فسنجد وراءها شخص يعيش فى أفغانستان قام بالاتصال تليفونيًا بإحدى وكالات الأنباء وأخبرها بأنه يعرف شخصًا يعيش بالقرب من أسامة بن لادن، وكان قد سمع منه هذه التصريحات المليئة بالكراهية ثم أبلغها إياه، إذًا فهى رواية من مصدر غير موثوق به .

ثم ظهر فى الأسواق أول شريط ڤيديو يظهر فيه القائد الملتحى بالصوت والصورة ويدلى فيه بتصريحات مليئة بالكراهية تجاه أمريكا، وفى إصدار هذا الشريط لعبت قناة الجزيرة القطرية العربية التى تبث إرسالها من إحدى المحطات المحلية لهيئة الإذاعة البريطانية دورًا كبيرًا، وحاولت أن تضفى عليه صبغة عربية إسلامية .

جاء فى هذا الشريط ما يلى

«إن الله تعالى قد أصاب الولايات المتحدة فى مقتل، فالحمد لله الذى دمر أكبر مبانيها، وها هى الولايات المتحدة قد أصابها الإرهاب من شمالها إلى جنوبها،

ومن شرقها إلى غربها، فسبحان الله العظيم . . . عندما يهوى السيف بعد ٨٠ سنة على الولايات المتحدة، عندئذ يرتفع صوت المنافقين يعرب عن الحزن والأسى لموت هؤلاء القتلة الذين أسالوا دماء المسلمين واستباحوا عرضهم ومقدساتهم . . . فقد أذن الله تعالى لجماعة من المسلمين المتقمين للإسلام بتدمير الولايات المتحدة، فأسأل الله العظيم أن يعلى شأنهم، وأن يجعل جزاءهم الجنة»(٨٤).

فى هذه الأثناء انتشرت فى كابول وما حولها أكثر من ٥٠ رسالة فيديو للإرهابيين المزعومين، وتم إرسالها إلى البنتاجون والمخابرات الأمريكية، ويبدو أن طالبان الذين تعلموا فى مكاتب تحفيظ القرآن، وكذلك المقاتلين الذين ينتمون إلى تنظيم القاعدة، لا يرون ضرورة للاحتفاظ بأية أسرار، فقد أخذوا يتحدثون إلى أنصارهم عن طريق شرائط الفيديو، ويحثونهم على القيام بأعمال إرهابية ضد أمريكا، وفى كابول كانت توجد هذه الشرائط تقريبًا كل أسبوع فى منازل مهجورة، وكان يتاح لهيئات التليفزيون الغربية إمكانية الاطلاع عليها ونشرها تحت اسم القاعدة، ورأينا وسمعنا أسامة بن لادن عدة مرات ينادى بالجهاد ضد الغرب البغيض، ولكن الشرائط كانت غالبًا صعبة الفهم، وكان المستشرقون المتخصصون فى اللغة العربية يرون أن هذه الشرائط المترجمة من العربية إلى لغات أجنبية - وعلى وجه الخصوص الترجمة الإنجليزية - لا تعبر عما يعرض للجمهور الغربى، وكثيراً ما صرح الخبراء أن هذه الشرائط مزورة على أكبر الاحتمالات، وليس لها أية أهمية كأدلة (٨٥)، وفى هذا الصدد نادت الأصوات فى «هولى وود - Hollywood» بأنه يمكن بواسطة تكنولوچيا دبلجة الأفلام التجارية التوفيق بين الأصوات بكلمات وتراكيب مطابقة للأصل، بحيث لا يدرك المشاهد العادى هذا التقليد(٨٦).

فى هذا الصدد عثرت المخابرات المركزية الأمريكية على أكثر من عشرة أشخاص يشبهون أسامة بن لادن، حيث كانوا يستخدمون كبدلاء وأشباه له، وكان أحد مقلدى الأصوات قد ظهر فى أجهزة الدعاية الأمريكية الموجهة إلى العراق، وكان باستطاعته تقليد صوت الديكتاتور صدام حسين بقدرة فائقة، والعلاقة الجديدة القوية التى تربط البنتاجون بتكنولوچى الأفلام فى هولى وود لا تدع مجالاً للشك فى إمكانية تصنيع الأفلام المطلوبة فى الوقت المناسب، ثم يعلن العثور عليها بعد ذلك، وتصدَّر إلى الولايات المتحدة الأمريكية .

يشبه ذلك مثلاً الفيلم الذى استدلوا به على قيام تنظيم القاعدة بتجريب أسلحة كيميائية على الكلاب، وكان من الغباء أن يظهر فى الشريط كلاب صيد ذهبية اللون، وهى سلالة غير منتشرة فى الجبال وفى شوارع دولة أفغانستان الفقيرة(٨٧).

الكمبيوتر المحمول والقرص الصلب يحتويان على المخططات الإرهابية

دليل آخر مزعوم على إدانة أسامة بن لادن وجنود القاعدة تمثل فى قيام أحد الصحفيين العاملين فى جريدة «وول ستريت جورنال ـ Wall Street Journal» بشراء كمبيوتر محمول مستعمل من متجر للإلكترونيات فى كابول، وكان التاجر قد باع للصحفى قرصًا صلبًا جديداً ؛ لأن القديم الخاص بالكمبيوتر لم يعد صالحًا للاستخدام، وادّعى أنه حصل على الكمبيوتر من عائلة لها صلة بالقاعدة، وعلى الرغم من أن القرص الصلب الخاص بالكمبيوتر كان قد أفرغ من محتواه قبل عملية البيع(٨٨)، إلا أن مكتب تحرير صحيفة وول ستريت جورنال أثار الشبهات عندما أعاد تكوين محتوى القرص، وأخذ وسيط التخزين يكشف تفاصيل لا نهاية لها عن هجمات إرهابية تم التخطيط لها ونفذت بالفعل، وكذلك علاقات مالية لشبكة القاعدة، وكان كل ذلك مصحوبًا بالأسماء وأرقام التليفونات(٨٩).
وتنازلت إدارة التحرير للبنتاجون والمخابرات المركزية الأمريكية عن استغلال محتوى هذا القرص، ولكن بعد ذلك مباشرة نشرت الجريدة فى مقالتين أخباراً مثيرة، من بينها خبر يفيد بأن رئيس المخابرات الباكستانية قد قام قبل يوم ١١ سبتمبر بأيام قليلة بتحويل ١٠٠,٠٠٠ دولار إلى فلوريدا للسيد محمد عطا الصديق الحميم لأسامة بن لادن، وذلك عن طريق وسيط من هذه البيئة الإرهابية يدعى الشيخ أحمد عمر، ومن جانبها قامت المخابرات الهندية بالتقاط مكالمة هاتفية لهذا الوسيط استنتجت منها مدى هذه العلاقة الحميمة والقوية التى تربطهم بأسامة بن لادن، وهكذا يتم العثور على الحلقة المفقودة فى سلسلة الأدلة للربط بين أسامة بن لادن ومنفذى الاعتداءات على نيويورك وواشنطن(٩٠)، ولكن ما هو السبب الذى يجعل أسامة بن لادن كمدبر مزعوم لهجمات نيويورك وواشنطن يقوم بإرسال هذا المبلغ الكبير قبل العمليات الانتحارية بليلة واحدة لشخص كان سيموت بعد ذلك بوقت قصير؟ يبقى هذا السبب غامضًا.

بعد العملية بعدة أسابيع قام «دانيال بيرل - Daniel Pearl» وهو صحفى نشيط فى جريدة وول ستريت جورنال بمحاولة اكتشاف أسباب وملابسات هذه الصفقة، ولكنه قتل بوحشية أثناء لقائه مع أحد المسئولين[٩١] وتم تصوير هذه الجريمة بالفيديو، وبعد ذلك مباشرة اتضح أن دانيال بيرل مواطن إسرائيلى حاول يوم الحادى عشر من سبتمبر الدخول إلى فوهة المسدس الساخنة، أما الروايات التى أوردتها الصحف والتى اعتمدت كليًا أو جزئيًا على تصريحات المحققين، وعمليات أجهزة المخابرات، والمتحدثين باسم البنتاجون، فلم تستطع حتى الآن كشف غموض هذه القصة المأساوية، ويبدو أن الأمر به معلومات خاطئة، أو اختلاقات أو حيل وتلاعب بحياة واحد من الصحفيين وأسرته[٩٢].

تم العثور على معلومات مثيرة ومشابهة فى أحد أجهزة الكمبيوتر المحمولة، وتتحدث هذه المعلومات عن أحداث سنة ١٩٩٥م فى أول هجمات على مركز التجارة العالمى، وذلك على غرار ما حصلت عليه صحيفة وول ستريت فى أحد الكمبيوترات المحمولة فى كابول حول هجمات سنة ٢٠٠١م، حيث وجد لدى مرتكبى الهجوم كمبيوتر محمول مسجل على قرصه الصلب إشارات إلى عمليات اختطاف تمت بالفعل لطائرات أمريكية، واستخدامها كبديل للقنابل فى الهجوم على أهداف مهمة، مثل مقر المخابرات الأمريكية المركزية فى «لانجلى ـ Langley» بولاية «فيرجينيا ـ Virginia»، وفى نيويورك لعبت هذه المعلومات دورًا كبيرًا فى القضية، ثم دار الحديث آنذاك حول تلقى المختطفين تدريبات للقيام بمأموريات انتحارية، وتمت إدانة مالك الكمبيوتر مع منفذى الهجوم المزعومين باعتباره قدم الإعانة لهم[٩٣].

بقى لنا أن نؤكد أن مجموعة أسامة بن لادن الإرهابية المزعومة، وكذلك قاعدته، خلفوا فى جميع أماكن العالم وبكثافة غريبة آثارًا إلكترونية عثرت عليها أجهزة المخابرات، واعتبرتها أدلة على وجود وطريقة عمل هذه الشبكة الإرهابية.

يوجد فى كثير من الأحيان تناقض فى محتوى هذه التسجيلات، وذلك يشكك فى صحتها، فربما تكون مزيفة، وأجهزة المخابرات لديها القدرة الكاملة على ذلك، سواء كان ذلك شريط ڤيديو أو قرصًا صلبًا أو شريط تسجيل، و هذه الأدلة لا تصمد أمام التحقيقات الناقدة.